مانح لقب الجمال على أصحابه يغادر خلسة!!

محمد الوهيبي من سيحوّل القبح والفجاجة إلى جمال بعد ريشتك ومن لشهرزاد؟!

وثّق التراث وصاغ حكايته بروحه وحين اطمأن رحل

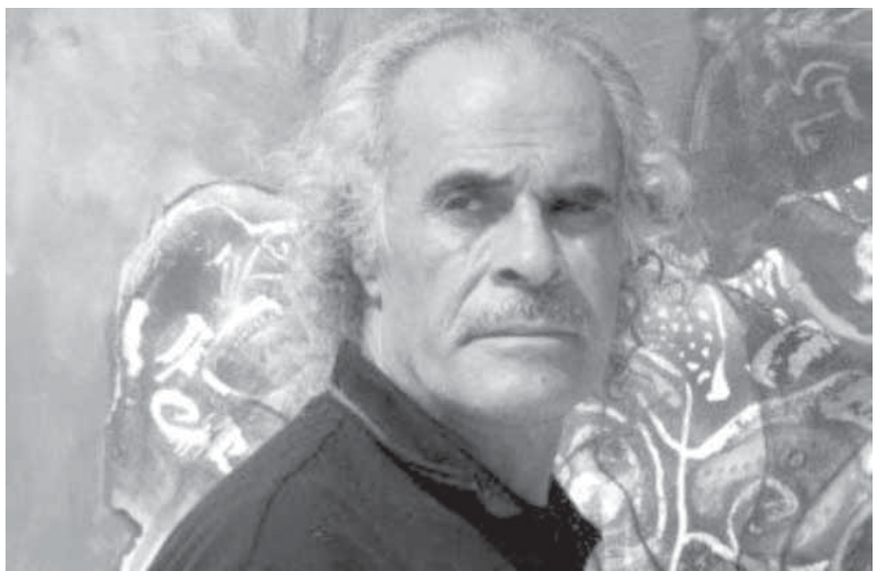

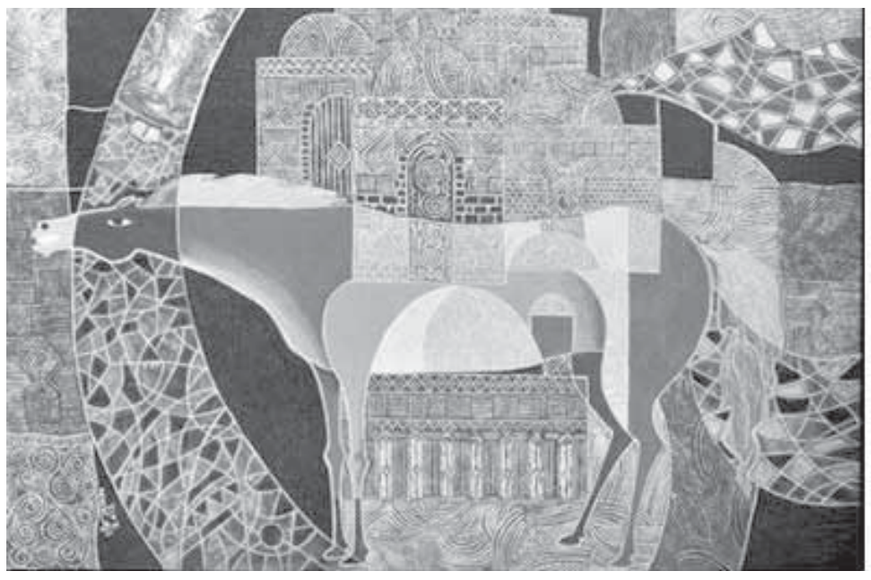

| إسماعيل مروة

محمد الوهيبي الرائع رحل بصمت، آثر ألا يؤلم أهله وأصحابه، رحل على أكثر من مرحلة، رحل باعتكافه وابتعاده، رحل بقهوته التي يصنعها على طريقته ومزاجه، وغالباً ما تختلط بالألوان، رحل بسمرته الآسرة ورنين صوته وضحكته، رحل بنظرته التي لا تفارقه إن كان في الشمس والضوء أو في مكان معتم..! ضاقت الدنيا بمحمد المبدع، تثاقلت خطواته بإرث شهرزاد، وحين سألت الصديق المبدع أكسم الطلاع ابن أخته عنه، قال: تعب الخال، وصار بعيداً، واليوم وقد فصلتنا عنه آلاف الأميال، واطمأن محمد على أن دمعتنا تجرحنا نحن، ولن تصل إلى جسده النحيل المتعب، اليوم آثر محمد الوهيبي الرحيل بعد أن عجز بروحه وإبداعه عن ترقيع سقف دفع فيه عمره، وثقبته البلدية لأنه مخالف، فبقي الوهيبي يرسم تحت الانهيار والستائر حتى لم يبق للبيت من أثر إلا في ثنايا الروح..

ربع قرن من الود

محمد الوهيبي عانقني قبل ربع قرن، وأخذني إلى مرسمه في أول الحجر الأسود، درجات قليلة إلى الدور الثاني، الطبقة الثانية على الأصح، مساحات قليلة فيها لوحاته وألوانه، ومساحات أكبر فارغة، والشمس تتسلل إلى الغرفة من حفرة كبيرة في السقف، وبعض قطع الإسمنت تتدلى من السقف، وحين سألته قال ضاحكاً صادحاً: «بربك مو حلوة؟ مولوحة تشكيلية جميلة هاد السقف؟» كان قد مضى على الهدم أشهر، لكن محمد لم يكرر التصليح واكتفى بهذا الثقب الذي يغطيه بستارة في البرد، وفي مساحته لا يضع لوحة أو لوناً.. في هذا المرسم عشت أياماً طويلة أتردد إلى محمد الوهيبي، وهو يرسم تجربته في المنمنمات والإكسسوارات الشرقية، وفي وجه المرأة شهرزاد، ومن وحي ذلك المكان الآسر كتبت قصتي (موت شهرزاد) وأهديتها إلى صديق شهرزاد الأبدي محمد الوهيبي، ولم أدر أن ذلك المكان سيجمعني بالراحل الدكتور القاص محمود موعد صديق الوهيبي.. كانت مواعيد الوهيبي دوماً بعد الظهر باستثناء العطل، فهو مدرس في مدارس أبناء وبنات الشهداء، يعطي تدريس الفن أجمل ساعاته، وحين تعجبت من فنان لوحاته مطلوبة، وهو يفني وقته في التدريس، قال لي: هذه المدارس أعطتني الاستقرار قبل أن أصل إليه، وأنا أجد نفسي مع أبناء وبنات الشهداء، ولا أتنازل عن تدريسي لهم، وبيني وبينهم من الحب والارتباط ما أعجز عن تفسيره، لو تركوني لا أتركهم حتى التقاعد..

حدثني الوهيبي عن طلبته ومواهبهم، وعن الإمكانات المسخرة لديهم، وعن الإدارة وتعاملها معهم، وبينه وبين الحاجة سامية المدرس من خدمات للطلبة رحلت برحيله، أقول هذا لأن عدداً من الأصدقاء التشكيليين، وهم من دون الوهيبي كانوا يتأففون من الطلبة- إن كانوا مدرسين- بينما الوهيبي كان يرعى مواهبهم، ويحرص على التعاون معهم إلى أقصى درجة، وبقي كذلك حتى النهاية، هذا في الوقت الذي لا يتخلى عن الرسم واللوحة والتجديد والقراءة.

طريقه إلى فلسطين

اعتمد الوهيبي وفي مراحل متعددة من تجربته على تقديم الزينة والحلي ووجه المرأة في لوحته الشرقية بامتياز، وكانت الوجوه، المرأة خاصة فلسطينية الطابع من دون علم أو ثوب أو إعلان، وكانت اللوحة طريقه غير المباشر إلى فلسطين والتعبير عن حبه لها، والطائر سجيناً وطليقاً، حياً وميتاً، الطريق للتعبير عن الإنسان الفلسطيني وهمومه وقضاياه، ولم أذكر أنني رأيت له لوحة مباشرة لفلسطين، كما لا أذكر أنني رأيت له لوحة تخلو من إيحاء إلى فلسطين الوطن والحب والمرأة ورمز الشرق... وعند كل تجربة ومعرض كنت ترى الكتب منثورة على طاولات محمد وعلى الأرض، يقرأ كثيراً في الكتب، ويطلع على اللوحات التي تخص موضوعه، ومن ثم يشكل موضوعه الذي بعد عدد من اللوحات يصبح موضوع المعرض القادم، يجمع اللوحات واحدة بعد أخرى، يعرضها على المقربين، ويضعها إلى جوار بعضها ليخلص إلى معرض من روح واحدة، ويستبعد كل ما لا يمت بصلة إلى موضوعه العريض، وخاصة عندما يدخل موضوعة جديدة كما فعل في الأبواب النحاسية، وفي الأسماك التي بذل جهداً كبيراً حتى جعلها جزءاً من اللوحة إلى جوار المرأة من دون أن تكون غريبة عن اللوحة، ومن دون أن تكون نافرة أو منفرة.

وبين فترة وأخرى يأتي هاتف من الوهيبي ليطلب من أصدقائه الاطلاع على تجربته الجديدة، وكان يستمع بدقة إلى ما يقال، وأكثر من مرة شهدت على تعديلات قام بها بسبب رأي كان غائباً عنه، أو أبعده عنه إعجابه باللوحة وموضوعها، لذلك لا غرابة إن قلت إنني لم أسمع منه مرة كلمة أنا أرى، لأنه كان يرى اللوحة نتاجاً مجتمعياً يقوم على المراقبة والتأثر والتأثير.. ولذلك لم يضع لافتة لمعرض عن فلسطين ليستفيد، وحين ذكرت له تجارب تقوم على مباشرة صادقة لفنانين فلسطينيين، لم يرفضها ولم ينتقدها، وكل ما كان منه أن قال لي: هؤلاء أفضل مني، فهم عاشوا في السجون، وبعضهم تعلم الفن ورسم في السجن، فهو أكثر صدقاً وقرباً من موضوعه، وكل محاولاتي لأجعله يقدم رأياً ذهبت هباءً.

محمد والأصدقاء والشوارع

في عالم الإبداع والفن قلّ أن تجد من يجمع الأصدقاء عليه، ومحمد الوهيبي هو الوحيد الذي التقيته أنا وهناك إجماع على فنه وشخصه، فما من أحد يعترض على شخصه ورأيه، وما من أحد يعترض على الحديث عن تفوقه، اللهم إلا من باب الغيرة وعدم الحب للتجربة، وحتى من ينطلق من غيرة وعدم حب للتجربة لا ينالها كما يفعل مع الآخرين، وكل هذا يعود إلى أمرين، أولهما أن الوهيبي شخص لا يعرف الانتقاص للآخرين، لا يشارك في الانتقاص، وينسحب من الجلسة التي تسيء للآخرين، وهذا الخلق يعرفه الجميع، لذلك ربما منعهم الحياء من أن يفعلوا شيئاً تجاهه، أما في التجربة فمحمد فنان متمكن من أدواته وموضوعاته، ولا يقدم نفسه إلا على أساس التجريب، والجميع يقف أمام لوحته باحترام.

> لن يرسم فلسطين التي يعشقها في يوم ولكنها لم تغادر وجهاً أو أيقونة في لوحاته فكل الوجوه فلسطين وكل التراث

فالجميع أصدقاؤه، ويذكرني عند رحيله بنضال سيجري، وكما كانت لازمة نضال تحية إلى روحك، كانت لازمة الوهيبي: صديقي الجميل، كان يخاطب جميع أصدقائه بالجمال والجميل، لذلك سيفتقد أصدقاؤه هذا الجميل الذي لم يكن يرى سوى الجمال مع شفتين تنفرجان عن أسنانه، وإغماضة من العينين تدلان على أنه يرقب الجمال حقاً في الشكل أو في الروح... وغالباً ما كان أصدقاؤه يرونه في الشارع متسكعاً قاصداً غايته أو بيته مرسمه مشياً بمشية مميزة بحركتها وبطئها، ومن البعيد نعرف الوهيبي الذي لم يكن يقود سيارة، ولم يحب القيادة، مع أنه امتلك سيارة خاصة إلا أنه تركها لمن حوله، واكتفى بملكية الشوارع، والعرق يتصبب منه في كل شارع وزاوية، كان في طريق مشروع دمر، وكنت في طريقي لإيصال صديق لي إلى المشروع، ومن البعيد رأيته في الطريق، فأعطيت هاتفي لصديقي، استخرج الاسم وطلبته، رأيته يفتح هاتفه، بادرته ما الذي جاء بك من الحجر الأسود؟ أنزلني يومها، ودلني على بيته ومرسمه الجديد في أول المشروع، ورأيت عالماً مختلفاً، واتفقنا على حوار..

بعد أيام كنا على موعد في جريدة الوطن، التقطنا الصور، وأخذت صور لوحاته، ونشرنا حواراً جميلاً وطويلاً مع الوهيبي الفنان والإنسان، نشر الحوار، وكان الوهيبي غاية في التهذيب مع الجريدة والمحرر كعادته، وبعد أسابيع صار الوهيبي خارج التغطية، وحين سألت عنه الحبيب أكسم الطلاع أخبرني أن خاله صار في ألمانيا مقيماً، وقد كوّن أسرة جديدة. لم أفرح أن الحديث مع الوطن كان آخر حوار أجراه قبل الرحيل.. وفي شوارع دمشق تحدثت وأكسم عن محمد الخال والصديق والفنان، لم نتحدث عن سواه في كل الساعات، وكأننا ننعيه عن أرواحنا، وكنا حقاً ننعيه، فلن نراه بعد رحلته واستقراره.

وكلما نظرت إلى لوحته الأثيرة التي أهداني (البوابة) على جدار مكتبي أنتظر من محمد أن يدفعها بيده ليدخل معانقاً على عادته عناقاً طويلاً يتحول إلى هواء يدخل في حنايا قميصه الفضفاض ليعطي روحاً جديدة..

وبعد الرحيل

اليوم أول شيء رأيته خبر رحيل الوهيبي، وأول شيء فعلته الاتصال بأكسم الذي يعرف كم هو الوهيبي عندي، وبادر إلى تعزيتي بدل أن أعزيه، وقال: ذهب الذي كان يصفنا بالجمال..

محمد أيها الصديق الرائع، أيها المبدع الصادق..

أيها النبيل من سيصفنا بالجمال بعدك؟

من سيحول قبحنا إلى جمال؟

من سيكون مع شهرزاد بعدك؟

أرح رأسك يا صديقي حيث أنت

لا بكاء يؤلمك

ولا أحبة تخشى عليهم لوعة الفراق

محمد أشفقت علينا بالرحيل

ويعز علينا أن دمعنا لا يتطهر بك وبنبلك

وداعاً أيها الصديق الجميل

وموعدنا كل صباح مع ألق لوحتك وأصالة روحك

ولا تزال الشمس تصل إلى سقفك لتطهر روحك في أرض غريبة عنك.

عبد الرحمن سامي ودمشق قبل ١٢٥ سنة

| نصر الدين البحرة

عبد الرحمن سامي هو أحد الكتاب الذين عُرفوا في مصر في مطلع القرن العشرين، وقد عثرت أخيراً على نسخة جديدة مجلدة تجليداً أنيقاً عن كتاب له عنوانه: «القول الحق في بيروت ودمشق» صدرت طبعته الأولى حتماً أواخر القرن التاسع عشر، ذاك أنه في الأسطر الأولى من هذا الكتاب الذي يعد من أدب الرحلات الممتع، يذكر أنه غادر مصر يوم الخميس ١٩ حزيران سنة ١٨٩٠ الساعة الخامسة بعد الظهر على الباخرة النمساوية التي تملكها شركة «لويد». وبعد سفر ثمانية أيام وصل إلى بيروت صباح الثامن والعشرين من الشهر نفسه- حزيران ١٨٩٠.

تجول عبد الرحمن سامي في بيروت وبعض أنحاء لبنان، ثم ركب عربة الخيل التي كانت «لشركة طريق الشام الفرنسوية» متوجهاً نحو دمشق، ويصف البلدات التي مر بها في لبنان خلال ذلك: عاليه، سوق الغرب- شتورة... حتى بلغ وادي الحرير، حيث غيرت العربة خيولها، كما هي العادة، إذ تتعب الخيول بعد أن تقطع مسافات محددة، ويبدو أن هذه المسافات لم تكن طويلة جداً فما إن وصلت العربة إلى الجديدة... حتى كان تغيير الخيل أيضاً.

في الديماس ١٥٠ بيتاً فقط

وحين وصل إلى الديماس كتب يقول: «إنها قرية كبيرة تضم ١٥٠ بيتاً ونيفاً، وهي مبنية على مرتفع، وفي ضواحيها كثير من الكروم والتين، وفيها بضعة دكاكين، وهي مشهورة لأنها محطة للمكارين يبيتون فيها عند سفرهم من الشام وعند رجوعهم من بيروت، والمسافة بينها وبين الشام على البهائم المحملة ست ساعات ونصف الساعة، والمدة التي يقطع بها المكارية الطريق بين بيروت والشام هي أربعة أيام».

أطلال قصرين على الطريق

يلاحظ راكب السيارة المنطلق من دمشق نحو دمر قبل أن يصل إلى هذه البلدة الضاحية على يمين الطريق، إثر تقاطعه مع سكة القطار خرائب وأطلالاً، ثم لا يلبث أن يشد انتباهه قصر آخر مهجور بني على طراز القصور الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر... وعندما يقرأ هذا الكتاب يعلم أن تلك الأطلال هي بقايا قصر أحمد باشا الشمعة، وأن ذلك القصر المهجور القائم على علٍ هو قصر الأمير عبد القادر الجزائري.

إن عبد الرحمن سامي وقد وصل إلى هذا المكان لا يملك أن يخفي انبهاره بسحر الطبيعة، وها هو ذا يقول: «هناك تجلت لنا الطبيعة بأبهى محاسنها، وتأكدنا صدق ما قيل بأن الشام جنة الله في أرضه، حيث ضاق الوادي وصار سيرنا بين جبلين، البعد بينهما نحو نصف ميل، وكان نهرا يزيد وتورا يسيران بارتفاع عن يسارنا في الجبل، والطريق إزاء تورا، وعن يميننا بردى ينساب بمائه اللجين على حصباء كالدر، ورؤوس الجبال تكللها أشعة الشمس، والأشجار على جوانب المياه صفوفاً...».

سكان دمشق عام ١٨٩٠

... يحاول عبد الرحمن سامي أن يجري بحثاً حول أول من بنى مدينة دمشق ووضع أسسها ويستعرض وجهات نظر متعددة، لكنه ينتهي مثلما انتهى النعمان قساطلي في كتابه «الروضة الغناء»- وقد قرأه هذا الرحالة بعد وصوله إلى دمشق- إلى عدم الجزم بأي قول، وإن يكن يرتاح إلى فكرة أنها كانت مدينة مشهورة أيام سيدنا إبراهيم منذ ما ينوف على ثلاثة آلاف وثمانمئة سنة.

وهو يكتب أن عدد سكان دمشق كان في تلك السنة ١٨٩٠ مئة وخمسين ألف نفس أما الأجانب بها فقلائل، إذ لا يبلغ عددهم الأربعمئة نفس.

خمس مراتب لأهل دمشق

يقسم المؤلف أهل دمشق في ذلك الزمن من حيث أسباب معيشهم إلى خمس مراتب هي: مستخدمو الحكومة، أصحاب الأملاك، التجار، الباعة، المحترفون أو أصحاب المهن، مستخدمو الحكومة يعدون بضع مئات وهم مختلفو الدرجات في الثروة والاقتدار يتزيون بالزي الإفرنجي، أصحاب الأملاك أكثر عدداً، وعوائدهم في ملابسهم ونظام بيوتهم غالباً شرقية، أما التجار فكثيروا العدد، وهم قسمان، قسم يتجر بالبضائع والمحاصيل، وقسم يتجر بما ينسجه من المنسوجات الشامية وبما يصنعه من البضائع، والباعة يبلغون نحواً من سبعة آلاف نفس وجميعهم ذكور إلا شرذمة قليلة جداً من النساء يسمونهن «دلالات» شأنهن بيع بعض الملابس القديمة في أحد أقسام سوق الدلالين، سوق الأروام المسمى: سوق النسوان، ويصل المؤلف أخيراً إلى أصحاب المهن فيسميهم العَمَلة، ويقول: إنهم كثيرو العدد لكثرة ما في هذه المدينة من الصنائع والمهن، فإن فيها من أنوال النسيج فقط ما يبلغ خمسة آلاف وخمسمئة نول: تشغل نحواً من خمسة عشر ألف عامل، منهم نحو خمسة آلاف امرأة ونيف، وتعمل كل منهن في بيتها في تسليك الحرير والغزل.

الرجال في القنابيز والطرابيش

ويصف عبد الرحمن سامي ملابس الرجال قائلاً: إنهم يلبسون القنابيز ويتمنطقون فوقها بشالات أو زنانير حريرية، وجميعهم يلبسون الطرابيش إلا أن معظمهم يتعممون فوقها بعمامات صغيرة من قماش الأغباني، وطلبة العلم منهم يتعممون بعمائم من قماش الشاش الناصع البياض، أما النساء فمتبعات الأزياء الإفرنجية في ملابسهن وترتيب شعورهن. وحُجَر الدماشقة كبيرة واسعة مرتفعة السقوف وهي مربعة أو مستطيلة، وترتيب فرشها شرقي فإنهم يبسطون في وسط الحجرة السجاجيد، أو البسط العجمية أو الحصر، ويضعون حولها مما يلي الجدران مقاعد مُلاصقٌ بعضها لبعض، حشوها في الأغلب صوف أو ما يقوم مقامه، ويعلقون على الجدران المرايا أو القطع الجميلة الخط أو الصور، وفي جدران حجرهم كتبيات كبيرة، والكتبية عبارة عن خزانة في الجدار ارتفاعها نحو ذراعين وعرضها ذراع وعمقها ثلث أو نصف ذراع، ويعرضون فيها الأواني الثمينة، وأصل وضعها كما يستدل من اسمها كان لأجل الكتب، أما السرر فقليلة جداً، واصطلاحهم أن يفرشوا فرش نومهم على أرض الحجرة، وفي الصباح يطوونها في خزانة بجدار الحجرة مصنوعة لهذه الغاية يسمونها: يوكاً، ولابد لكل صاحب بيت ولو كان فقيراً من حجرة مفروشة في بيته لأجل استقبال الضيوف.

أسواق دمشق وخاناتها ومقاهيها

في ذلك التاريخ سنة ١٨٩٠، يعد المؤلف من أسواق دمشق ٢٨ سوقاً، ومن خاناتها ١٣٩ خاناً، منها ما هو خاص بالتجار ضمن المدينة، ومنها ما هو للبهائم وإيواء المكارين وهو متفرق في أنحاء البلدة، أما المقاهي في دمشق فقد كان عددها ينوف على ١٢٠ مقهى، أحدثها أنشئت في المرجة فيجتمع فيها الناس ليلاً ونهاراً، في فصول السنة الثلاثة الربيع والصيف والخريف، وأما عدد حمامات المدينة فقد كان في ذلك التاريخ ثمانية وخمسين حماماً أشهرها حمام القيشاني، وهو الآن سوق مغطى!

ويذكر ١٥٣ جامعاً كانت في دمشق ما عدا المدارس الكثيرة وترب الأولياء العديدة..

.... إن قراءة كتاب عبد الرحمن سامي نزهة حقيقية... للروح والذكرى والتاريخ.. وهو لون جميل من أدب الرحلات.

تريدُ أن تُغيّرنا الحياة...

| رانيا كرباج

تريدُ أن تُغيّرنا الحياة، تحمل مطرقتها والمعوَل تدقُّ فينا وتحفر، إمّا أن نستجيب لضرباتها وتُظهر لها أجمل ما لدينا، فنقترب مع كلّ ضربة من تلكَ التحفة الإنسانية الموجودة في داخلنا، وإما أن نرفض التغيير فلا نجد في محاولاتها سوى المزيد المزيد من الألم.

ضرباتُ الحياة ما هي إلا التجربة، يقولونَ لا تُدخلنا في التجارب وأقول أدخلنا إلهي في التجربة ولكن في النهاية نجّنا، أن ننجو من التجربة يعني أن نتعلّم منها وهو ما يزيدنا وعياً وبالتالي محبة، ما يزيدنا قوّة ويُعيننا على الدخول في غيرها، ، هذا ما يسمّونه نمواً، وهو الغاية القصوى لوجودنا هنا على هذه الأرض، أن ننمو ونتعلّم.

مع الأسف مهما كنّا مادةً مرنة قادرة على الفهم والتأقلم فإننا سنعيشُ الألم، الألم هو من طبيعة الحياة، لكن هناك ألمٌ يدفعنا كي نتغيّر ونعبرَ إلى فضاءاتنا الأرحب، يشدّنا من يدنا إلى واحات أكثر فرحاً، وألمٌ آخر يجرّنا باستمرار نحوَ الأسفل لنعيش في مستنقعاتنا المملوءة بالأحزانِ والأحقاد والشرور، ألمٌ يأخذنا إلى ولادة وآخرٍ يكتفي بالموت، ما علينا سوى أن نختار، وهذا سرٌ من أسرار حرّيتنا أو بالأحرى جوهر حريتنا، فالإنسانُ مخلوقٌ كي يختار وموجود كي يدفع ثمن خياراته.

لنتأمّل قليلاً قصّة النجوم، أولا تعيش تفجّراتها الداخلية بمعنى أنها تعيشُ ألمها لتحوّله في النهاية إلى نور يواسي ليلنا.

ولننظر إلى تلكَ الشجرة وهي تزهو بثمارها الشهيّة، من دون أن ننسى كل فصول الألم التي عبرتها إلى أن وصلت إلى غايتها الجميلة.

تبدأ المشكلة، مشكلة الإنسان مع الألم عندما يرفضه، بمعنى آخر يرفض أن يحاوره، أن يفهمه، ويتعلّم منه، يعتقد أنه جيدٌ هكذا، أنه كاملٌ ولا يحتاجُ إلى أيّ إضافة، فبدل أن يخرج في كلّ مرّة منتصراً من آلامه مُكلّلاً بمزيدٍ من الوعي، يغرق فيها لتتحوّل إلى إحساسٍ مزمنٍ يرافقه، أو في أفضل الأحوالِ يتمكن منَ الهربِ منها عبر الطريق الأسهل فيُعلّقها على شمّاعة الخارج، طبعاً الخارج الظالم المُظلم غير الجديرِ بالثقة.

هكذا ينأى بنفسه عن تجربة الحياة، يختبئ منها خلف الكثير الكثير من المعتقدات والأقنعة، وأحياناً كي لا تطوله، يبني برجاً عالياً من الأفكار والمبادئ المثالية، يجلس فيه متعالياً عن الواقع، يعيش الموت كي يتفادى معركةَ الحياة.

هذا الإنسان لا ينمو إنّما يزداد تصلّباً فقط، وقد يزدادُ شرّاً ويتطرّف في مواقفه وآرائه، يذهبُ بعيداً في الدفاعِ عنها، بعيداً حتى التضحية بحياته أو بحياة الآخرين، فقط كي لا يضطر إلى المواجهة، مواجهة ضعفه ورفضه العميق للحياة وعملها فيه.

نعم هناك ما هو إيجابي في الألم ويستحقُّ أن نبحث عنه، فالحياة لا تتجدّد وتستمرّ دونه، هو مخاض لا بدّ أن نعبره أحياناً، ولكنّنا كما قلت في البداية أحرار، أحرار في أن نختار الطريقة التي نواجه بها آلامنا، هذه الطريقة هي هويّتنا وهي التي ستحدّد من نحن أو من سنكون، أعتقد أن هذا أهم خياراتنا والباقي تفاصيل، أهم خياراتنا لأننا من خلاله إما سنقول نعم لنجّات الحياة ونمشي معه نحو مزيدٍ من الجمال وإما نقول لا لنبقى عالقين نتخبّط في دوّامة آلامنا وتشوّهاتنا.